

## ثمرات المطابع

﴿ فلسفة النشوء والارتقاء <sup>(١)</sup> ﴾

قال بعضهم يوماً للدكتور شمیل : « انك لمصيبة على الناس ، لمغايرتهم في افكارهم . » فأجابه الدكتور : « اذا جازت الشكوى فمن منا أولى بالشفقة ، أتم الدين مصيبتكم بي واحدة ، أم انا الذي مصيبتك بكم متعددة ! »  
 هذه النكتة التي رواها الدكتور في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه « فلسفة النشوء والارتقاء » - وهو الجزء الاول من مجموعته التي هي قيد الطبع - تصور احسن تصوير موقف الدكتور شمیل تجاه البشرية . . . ويعرف ذلك أتم معرفة من جالسه وباحثه فسمعته يتدمر ويتأفف من حالة المجتمع الانساني وخرافاتهِ وسخافاتهِ ، شأن الدين لم يفهمهم معاصروهم . . . صاحب « كتاب فلسفة النشوء والارتقاء » اشهر من نار على علم ، قضى ثلاثين سنة ونيفاً وهو يحارب ويقاقل بقلمه - لانه لم يكتب الا ليشن الغارة على ما يراه من الاوهام في ابناء جنسه - وهو من هذا القبيل أجراً كاتب عرفناه في الشرق ، وامثاله في الغرب ليسوا بالعدد الكثير . يبحث وينقب ويستقري ، مستنيراً بنور العقل والطبيعة ، ولا يخشى في اعلان نتيجة بحثه واستقرائه ولو كان فيها ما يفضب ويؤلم ويخالف معتقد عموم الناس - وهي كثيراً ما تكون من هذا القبيل . وكفى برهاناً على ذلك

( ١ ) طبع بالطبعة المقتطف عدد صفحاته ٣٧٠ ثمة ستون غرماً وهو الجزء الاول من مجموعة الدكتور شمیل . وبدل الاشتراك في المجموعة كلها جنيه واحد

انه قام ينشر في الشرق مذهب دارون وشرح بخترا عليه يوم كان انصار هذا المذهب في أوروبا نفسها لا يتجاوزون عدد الاصابع . ولذلك قامت القيامة على هذا الكاتب الجديد الذي كان يريد ان يتقضى كل ما بناه اسلافه . ولكن كل ذلك لم يثبط منه العزائم ولم تزد المعاكسات الا رسوخاً في آرائه حتى الفها الناس منه ولو لم يوافقوا عليها . وتعودوا سماعها الآن من طبيهم وفلاسوفهم الشيخ بعد ان استكبروها من الشاب منذ ثلاثين سنة . والثبات على المبدأ - أياً كان - والتفاني في سبيله لما يدعو الى الاعجاب بصاحبه . ولو كان الدكتور شميل مؤمناً ، لكان من أحرّ المبشرين واعظم الشهداء . لانه من الفئة المهاجمة في هذه الدنيا لا الفئة المدافعة . ولذلك هو الآن مبشر حار ، ومؤمن متعصب « بعدم الايمان » . وان شئت ، قل هو متعصب في كفره كما ان غيره متعصب في ايمانه . وقد يكون كلا المتعصبين سواء

هو يقول عن نفسه انه « تقلب على مقابل التردد في الاديان من اليقين الى الشك فالنفي » ولكن هذا التردد لم تطل مدته عنده . بل طار به سريعاً الى النتيجة الاخيرة وهي « النفي » ووقف عندها منكرًا نافيًا داعياً الجميع الى مثل نفيه وإنكاره . وتكاد تجد في ما كتبه منذ ربع قرن مالا لا يزال ينسج عليه اليوم . ولم يحاول قط ان يلبس يده الحديدية قفازاً من الخمل ، ولم يعمد ابداً الى الطرق اللينة . بل انه يجرح بقلمه معتقدات العقل ، كما يجرح بشرطه دماغ الجسم ، ولكن دون استعمال بنج او مخدر . وهو يقرُّ بذلك اذ يقول ( ص ٢٤ ) : « رأيتُ أن اخوض غمار

البحث غير حافل بالمصاعب التي ستعترضني في هذا السبيل ، وان انخمه بتلك الصراحة الجازرة ، منكباً عن خطة الذين يرون ان الحكمة انما هي المصاداة ، لعل اذحزح الافكار عن مألوفها ، لعلني ان تحريك الافكار لا يكون غالباً الا بمثل هذه المصادرة العنيفة . . . »

وهذه هي طريقته الاصلاحية . ولم تر في كتابه الضخم ذكراً للشفقة والرحمة الأ مرة واحدة حيث قال : « لماذا كل هذا الغضب على هذا الانسان الضعيف الذي اقل احتياج من احتياجاته كافٍ لان يدفعه الى ارتكاب الجريمة لان الاحتياج مؤلم ، فالجوع فضاح ، والحاجة قاتلة »  
وعليه فاقصد هذا الطيب الاجتماعي اذا كنت مصاباً بدملٍ او كنت ذا عضوٍ معتل ، فهو يتره لك بلا شفقة . واذا كنت ذا جرحٍ يحتاج الى بلسمٍ او مسكن ، فايك والدكتور شميل . فاقبل ما هناك انه يكويه بالنار او بحجر جهنم

واذا كان هو يؤلمك فلا انه متألم منك ومن نظامك الاجتماعي في حاضرِك وماضيك

اسمع ما يقوله عن الماضي (ص ٦) : داني لا اتمنى لك تمدناً كتمدن عصر سقراط ، ولا تمدن باني الاهرام ، ولا تمدن الرومان ، حتى ولا تمدن عصر العباسيين ، ولا تمدن الامم النصرانية بعد خروج الاسلام من الاندلس وقبل الثورة الفرنسية . والا فأكون قد تمنيت لك ان تكون عبداً ذليلاً لا تملك ادنى حرية لا في القول ولا في الفكر ولا في العمل «  
وليس هذا كل مبلغ غضبه على النظام الاجتماعي في الماضي بل انه يتمنى لو

احرقت كل منقولات التاريخ وما فيه من التلفيق والكذب ( ص ١٠ )  
 أما غضبه على النظام الاجتماعي الحالي فتكاد تقرأه في كل صفحة من  
 المقدمة والخاتمة . ونكتني بإيراد شاهد واحد على ذلك وهو قوله : « صارت  
 علوم اللغة مما حكت لا طائل تحتها ، لا كلاماً وضع للتعبير عن الفكر .  
 والشعر اغراباً لا ابداعاً في وصف الحقائق . وعلوم الفقه سخافات ينزل  
 العقل فيها الى حد التبذل . والطب شعوذة لاستنزال الاسرار وتحويل  
 الافكار . وعلوم القوانين لاهوتاً ثانياً لا يفهم . وعلم المحاماة مخرفة وتفنتاً في  
 المشاغبات لا دليلاً مرشداً الى الحق وادعاً للباطل الخ . . . وعلى هذه  
 المبادئ النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقة »

وبعد ان هدم هذا البنيان اخذ يرشد الى كيفية تشييد بنيان  
 اجتماعي جديد . فجعل الاساس العلوم الطبيعية . فيها « يصح نظر الانسان  
 في لغاته ، وينتظم قياسه في دليله ، وتقوى فلسفته بارتباطها ، وتعلم آدابها  
 لا انطباقها على العمل ، وتصلح شرائعه . . . ويتسع عقله الخ . . . »  
 ويرى ان هذه العلوم هي « المخل الذي سيتكفل بقلب ما بني من النظمات  
 المتقلقة والشرائع الخائفة » . أما العلوم الكلامية فالعداوة بينه وبينها  
 شديدة وهو يبشرها بالانقراض القريب متى ترقى النظام الاجتماعي حسب  
 السنة الطبيعية .

وإذا استعملنا مع الدكتور شمیل تشبيهاً طبيياً ، فلا نكون قد خرجنا  
 عن الموضوع : يستخرج الاطباء المصل الشافي والواقي من الامراض ،  
 بان يلقحوا بمكروب الوباء حيواناً ما . فيتربك في دمه حالاً مادة مقاومة

لسريان الداء بموجب نواميس الطبيعة . ويزيدون كمية التقيح يوماً فيوماً ، حتى تبلغ مقداراً كان يقتل ذلك الحيوان لو فصح به دفعة واحدة . وبزيادة كمية المادة الوبائية ، تزداد كمية المادة المقاومة . ومن هذه الاخيرة يؤخذ المصل الذي يستعمل للتطعيم . . . قل ذلك عن مذهب الدكتور شميل ولا تكون بعدت كثيراً عن الحقيقة

أو ان شئت فاحكم عليه كما يحكم هو نفسه على العلماء وقل معه : « ان للعلماء أحلاماً كالعوام ، والعقل خزانه كثيرة الادراج » .  
هذا ما يسمح المجال ببسطه عن فلسفة الدكتور المتطرفة . ولو أردنا التفصيل لما كفى الكتاب العريض الطويل . أما عبارة الشميل فهي آية في الاجاز مع اداء المطلوب . وقلنا قرأنا كاتباً عربياً جاراه في هذا الاسلوب

\*  
\*  
\*

معنى الحياة (١) - وكثيرنا يجهل معنى الحياة الحقيقي ولربما كان هذا الجهل سبب ما نراه في مفاوز هذه الدنيا من الرزايا والخطوب ، والتعاسة والشقاء ، والخصام والتناقر ، والضغائن والاحقاد ، ومتى فهمنا هذه الحياة بمعناها الصحيح يسود السلام في العالم ، وتم المحبة بني البشر ، ويذوق الانسان منتهى السعادة الممكنة . طالع كتاب لورد افيري يتضح لك ذلك تماماً . وترى ان واضع هذا الكتاب من الفلاسفة الذين لم يضيعوا في عالم الاوهام ولا في بهرجة الكلام . ونحن في أشد الحاجة الى مثل هؤلاء

( ١ ) طبع في المطبعة الادبية في بيروت ويطلب في مصر من مكتبة المعارف

بالفجالة عدد صفحاته ١٥٨ وثمنه ثلاثة غروش صاغ

المفكرين الذين ينشرون المبادئ الصحيحة ولذلك يسرنا ان نصوصج اجمل  
كلمات الثناء على حضرة الشاب الذي النجيب وديع افندي البستاني  
الذي خدم بلاده احسن خدمة بتعريب هذا السفر النفيس وسبكه في  
عبارة عربية بلغة سليمة . كما انه يسرنا ان نرى الاقبال الذي صادفه هذا  
الكتاب فقد كادت تنفذ طبعته الاولى قبل مرور العام عليها . وعن  
قريب سيطلع ثانياً . وقد قررت مدارس المرسلين الاميركان تدريس  
« معنى الحياة » في مدارسها



نفحات الوردتين<sup>(١)</sup> - أو مجموع الفصول الشائقة والمقالات اللطيفة  
التي ديجها يراع الاديبين المرحومتين أنيسه وعفيفة كريمتي حضرة اللغوي  
الشهير الشيخ سعيد الشرتوني . يفوح من هذه المجموعة اريج طيب نشرته  
هاتان الوردتان قبل ان يذبلها نفس الموت السام . وخلق بنسائنا وقتياتنا  
أن يطالعن هذه المجموعة النفيسة حتى يعرفن الدرجة التي تبلغ اليها الفتاة  
الشرقية . متى تربت تربية حقيقية وصرفت أوقات فراغها بالدرس والمطالعة  
بدلاً من قتل وقتها وفواها العقلية بالامور التافهة . فنثني على حضرة  
الاديب ميخائيل افندي الشرتوني الذي حفظ هذه الفصول الجميلة من  
الضياع بنشرها بالطبع . ونسأل للاديبين الراحلتين رحمة واسعة ولحضرة  
والدهما المفضل عزاء وسلواناً

( ١ ) طبع بالمطبعة اللبنانية ( جسر بيروت - لبنان ) عدد صفحاته ٩٦  
وثمنه ثلاثة غروش